مجلة جامعة الملك عبدالعزيز : العلوم الهندسية ، م١١ ، ع٢ ، ص ص ٢١ -٥٥ (١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م)

مفهوم التخطيط في العالم العربي على ضوء فلسفة التخطيط الغربية

خالد بن سكيت السكيت

قسم التخطيط العمراني - كلية العمارة والتخطيط

جامعة الملك سعود - الرياض - المملكة العربية السعودية

المستخلص. إن العملية التخطيطية في العالم العربي تفتقد الإطار النظري والذي يُفترض أن تستند عليه عملية التنمية العمرانية . وهذا البحث محاولة لتطوير أُنموذج تخطيطي يستفيد من نظريات التخطيط الغربية ولكنه يحترم الأسس والثوابت الإسلامية ويتماشى مع المعطيات الحالية في البلاد العربية . فمن خلال اختبار مداخل التخطيط الغربية وكيفية نشأتها ، ومن خلال تحليل الخطوط العريضة للتخطيط في العالم العربي قدمت هذه الورقة أُنموذجًا تخطيطيًا يهدف إلى التعامل مع المستقبل بعملية وواقعية .

١ - المقـــدمـــة

تعني هذه الورقة بتحليل مداخل التخطيط العمراني الغربية وتحليل المنهج التخطيطي العام في العالم العربي وذلك من أجل تحديد خصائصهما والمآخذ عليهما مما سيساعد على الخروج بأُنموذج تخطيطي يستفيد من الفكر الغربي ويلائم الواقع العربي قدر الإمكان . ولذلك ستبدأ هذه الورقة بالتعريف بالتخطيط وتحليل أُسسه الفلسفية ؛ ثم تُتابع هذه الورقة بتحليل المداخل التخطيطية الغربية الأساسية وهي : التخطيط

العقلاني ، التخطيط التدرجي ، التخطيط التفاوضي ، التخطيط المناصر ، والتخطيط الجذري موضحةً خصائص هذه المداخل والمآخذ النقدية على كل منها . يلي ذلك تحليل للوضع التخطيطي في العالم العربي وذلك من خلال تحديد أي المداخل الغربية هو الأكثر تأثيراً على السياسة التخطيطية العمرانية في العالم العربي . ثم تتعرض هذه الورقة لتحليل وتفصيل فلسفة التخطيط الحالية في العالم العربي مع استعراض لتجارب بعض المدن العربية .

أما الجزء الذي يلي ذلك ويُعنى بمناقشة أي الفلسفات الغربية يمكن أن تكون رائدة للفكر التخطيطي العربي وذلك على ضوء إقتراح أُنموذج تخطيطي يهدف إلى التعامل مع المستقبل التخطيطي العربي بواقعية عملية . وتُختم هذه الورقة باختبار المداخل التخطيطية الخمسة (السابق ذكرها) بالإضافة إلى الأنموذج المقترح في ضوء قطبين فلسفيين مُميزين هما المثالية والواقعية العملية ، حيث يتم بناءً على هذا التقييم تحديد أي المداخل التخطيطية هو الأكثر ملائمة لقيادة العملية التخطيطية المستقبلية في العالم العربي .

١,١ الهـــدف من الدراســـة

تعنى هذه الدراسة بسد ثغرة بحثية في دراسات التخطيط العمراني العربي . فالمتتبع للبحوث العلمية العربية في مجال التخطيط العمراني لايكاد يجد أي دراسة تُحلل منهج التخطيط في العالم العربي في ضوء مداخل التخطيط الغربية . فكما هو معروف إن التخطيط العمراني العربي استعان بالتقنية الغربية لبناء وتطوير المدن العربية ، ولكن الكثيرين لايدركون أن هذه التقنية الغربية بُنيت على أُسس فلسفية ساهمت في ظهورها في المقام الأول . وهذا يعنى أننا سرنا في ضوء فلسفة تخطيطية غربية – وإن كنا لاندرك – من أجل تحقيق التطوير العمراني المرغوب . وكما سنرى لاحقًا في هذه الورقة فإن هناك عدة مداخل تخطيطية غربية كل منها يتميز عن الآخر ، ولذلك ستهدف هذه الدراسة إلى الإجابة على التساؤلات التالية : ماهي خصائص مداخل التخطيط الغربية ؟ وما هي نقاط ضعفها وقوتها عمومًا وفي ضوء التركيبة الحياتية العربية

خصوصًا ؟ وياترى أي من تلك المداخل قادت العملية التخطيطية في الوطن العربي ؟ وهل ذلك المدخل هو المناسب لقيادة العملية التخطيطية في المستقبل ؟

١,٢ طبيعة الدراسة

نظرًا لكون هذا المبحث يعني بنظريات التخطيط الغربية وعلاقتها بالتخطيط في العالم العربي فإن هذه الدراسة ستعتمد على تحليل لفلسفة التخطيط العمراني (والتي نشأت في الغرب وعلى الأخص في أمريكا الشمالية) مما يتطلب استعراض وتحليل عميق لنظريات التخطيط الحضري الفلسفية ذات العلاقة بموضوع الدراسة . وهذا التحليل لتلك النظريات لاغنى عنه لهذا النوع من الدراسة وهناك العديد من البحوث المتميزة التي اهتمت بنظريات التخطيط ومن أشهرها مقالة هدسون Hudson والتي حلل فيها أهم النظريات التخطيطية الغربية[١] . هذا بالإضافة لأهمية هذا النوع من البحوث للقاريء العربي حيث لاتوجد حسب علم الباحث مقالة علمية عربية تغطي هذا المجال العلمي ضمن الإطار العام لهذه الورقة .

٢ - منهج الدراسة

لاتعدو أهداف أي دراسة علمية أن تكون استكشافية Explorative أو وصفية Descriptive أو تفسيرية Explanatory . وهذه الدراسة تعني بالغرض الأخير والذي يمكن أن يُطلق عليه بالعربية « التفسير التعليلي » . وهناك خمسة مناهج للبحوث العملية وهي : المنهج التجريبي Experimental Research ، المنهج المسحي Survey Research ، المنهج الميداني Field Research ، المنهج اللا إقحامي Unobstrusive Research ، والمنهج التقويمي Evaluative Rescarch . وسيستند المنهج العلمي لهذا البحث على الطريقة اللا إقحامية حيث أنها تُعني بدراسة موضوع ما من بعد بحيث لاتؤثر مراحل هذه الدراسة على المادة المدروسة[٢] ، وهذه هي الحالة في هذا البحث ، وفي الحقيقة في الكثير من البحوث التخطيطية ذات الطابع الفلسفي ، حيث سيتم تحليل عميق للنظريات التخطيطية ذات العلاقة ، ومن غير المتوقع أن يُغير هذا التحليل في تلك النظريات لأنها ليست مواد اختبارية موضوعة في معمل محكم يُخشى أن تتأثر أثناء المعالجة (في هذه

الحالة التحليل) . ومن أجل استخدام هذا المنهج لابد من جمع المعلومات بطريقة تتلائم مع متطلباته ، وسيوضح الجزء التالي مصادر المعلومات ووسائل جمعها لهذا البحث .

٣- مصـــادر المعـــلومات وأســـاليب تحليلهـــا

نظرًا لفلسفية هذا البحث فإن جزءًا مهمًا من المعلومات سيكون مصدره الفكر الفلسفي المكتوب والموجود حاليًا في المراجع والبحوث العملية التخطيطية . ولهذا فإن هذه المراجع والمقالات العملية تمثل مصدراً مهمًا لهذه الدراسة . وسيتناول الجزء التالي تحليل مضمون البحث والذي يتعلق بالتعريف بالتخطيط ثم استعراض المداخل التخطيطية الأكثر انتشاراً وذلك من خلال اختبار ماكتبه المفكرون وحُفظ في المراجع والمقالات العلمية .

٣,١ التحـــليل المضمـــوني للبحث

٣,١,١ التخطيـــط

درس وتحدث كثير من المفكرين عن التخطيط . وكانت هناك سمة مميزة لتلك الدراسات والأبحاث وهي أنه لايوجد تعريف للتخطيط متفق عليه ، وسيتضح ذلك جليًا من خلال التقديم اللاحق لتعريفات التخطيط ، وقد يكون السبب في صعوبة الاتفاق على تعريف محدد للتخطيط هو اختلاف خلفيات معظم هؤلاء الكتاب ؛ فمنهم ذوو خلفية معمارية ، ومنهم ذوو خلفية اقتصادية أو قانونية ، ومنهم ذوو خلفية اجتماعية، ومنهم ذوو خلفية هندسية . لذلك لاعجب أن تكون هناك اختلافات في مرئياتهم لماهية التخطيط . وسنسرد فيما يلي بعض التعريفات المختلفة لحقل التخطيط(*) . يقول سايمون Simon : « التخطيط هو فكرة عقلانية متكيفة للتطبيق في المستقبل وفي الأمور التي يكون للمخططين درجة من التحكم فيها »[٣] .

إن مايعنيه سايمون هو في الأساس عقلانية التخطيط وتكييفه للمستقبل والأمور التي يستطيع المخطط أن يتحكم بها . فلابد من التعامل مع المستقبل بعقلانية واضعين في

(*) يمكن اعتبار التخطيط في سياق هذه الورقة حقلاً علميًا تجتمع فيه علوم عديدة في قالب واحد .

الاعتبار أن هناك أموراً يمكن التحكم فيها بينما توجد أمور من الصعب ، إن لم يكن من المستحيل ، السيطرة عليها . فالمخطط قد يستطيع إنجاز دراسة توقعية لتحديد ما إذا كان السكان في مدينة معينة سيزدادون أو سينقصون ، ولكن قد يكون من الصعب التنبؤ بتقدير دقيق لتلك الزيادة أو النقصان .

ومن التعريفات الأخرى التي لاقت اهتمامًا هي تلك التي أوردها ديفيدوف و رينر Davidoff & Riener : « التخطيط هو مراحل لتحديد العمل المستقبلي الملائم من خلال سلسلة من الاختيارات »[٤] . وفي هذا التعريف يرى المؤلفان أن التخطيط هو مراحل العمل وخطوات نقوم باتخاذها واضعين في الاعتبار الاختيارات المتوفرة لنا من أجل تحديد العمل أو الفعل المستقبلي الذي يبدو أكثر ملاءمة . فعلى سبيل المثال ، لو افترضنا أن مدينة معينة تتوقع أن تتضاعف حاجتها لماء الشرب خلال سنة ، عندها تكون مهمة المخطط في هذه الحالة تحديد الخطوات اللازمة من أجل تحديد أُفضل عمل يمكن القيام به حاليًا للإيفاء بمتطلبات ماء الشرب في السنة القادمة . أما فريدمان Friedmann فإنه يرى أن التخطيط هو الخط الواصل بين العلم والفعل Link Between Knowlege and Action ، ففي نظره أن التخطيط هو القناة التي يُحول فيها العلم إلى أفعال . كذلك نجد أنه يرى أن التخطيط يستفيد من الماضي لتحليل الحاضر من وجهة نظر مستقبلية[٥] .

ويرى هول Hall أن النهج القديم للتخطيط قد وُضح جيداً بشروحات جيده Geddes وهو يتلخص في المسح ثم التحليل ثم التخطيط Survey-Analyze-Plan[٦] . وهذا النهج مازال يُستخدم في كثير من بلدان العالم بما فيها البلدان العربية . وعلى أي حال فقد كانت هناك ثلاث مراحل في تطور النظرية التخطيطية (بناءًا على التجربة البريطانية) ويمكن تلخيصها فيما يلي :

المرحلة الأولى وقد بدأت منذ بدايات التخطيط وحتى منتصف الستينيات من هذا القرن (*) ويمكن تمثيل هذه المرحلة بالمخططات التطويرية Development plans التي تلت قانون ١٩٤٧م للتخطيط الحضري والقروي في بريطانيا . ويمكن تسمية هذه الفترة

(*) هناك بعض الخلافات في تحديد البداية الحقيقية للتخطيط كحقل علمي مستقل ، ولكن يمكن القول إن بداية هذا الحقل بدأت في أوائل القرن الميلادي الحالي .

بفترة المخطط العام Master Plan Era ، وتسمى أيضًا فترة التخطيط المماثل Bule Print Era .

المرحلة الثانية وقد بدأت من الستينيات ويمكن تسميتها فترة علم النظام التخطيطي The System View of Planning ، وهي تهتم بالإدارة والتحكم في نظام معين وهو النظام الإقليمي والعمراني . وفي هذه الفترة ظهر اهتمام أكبر بأنظمة Systimizing مراحل التخطيط وبتركيز أكثر على النمذجة وتقييم البدائل التصميمية والسياسات المختلفة[٧] .

أما المرحلة الثالثة فقد بدأت تتطور في نهاية الستينيات وبداية السبعينيات ، وتتميز بعدم تجانسها واختلاف مركباتها الفلسفية ويمكن وصفها بأنها فترة كان يُنظر فيها إلى التخطيط كفلسفة تعنى بالمشاركة المستمرة في معالجة الاختلافات أثناء العملية التخطيطية The Idea of Planning as a Continuous Participation in Confict . وقد تم التحول من الفترة الأولى إلى الفترة الثانية بسلاسة ، ثم تلت ذلك عملية معقدة للتحول إلى فلسفة المشاركة في معالجة الاختلافات بين جميع الأطراف ذوي العلاقة . لنأخذ المثال التقليدي « ... مستثمر معين يريد تطوير مشروع معين بطريقة الهدف الأساسي منها الربح المادي يواجه صعوبات من قبل الجهة البلدية المسئولة والتي تهدف إلى الحفاظ على الصالح العام ... ففي كثير من الأحيان تتم معالجة هذا الاختلاف بتقريب وجهة نظر الطرفين بمحاولة جعل أحدهما أو كليهما يتنازل عن بعض المطالب » . وهذا يؤكد أن التخطيط ليس فقط عملية فنية هندسية بحتة بل يتأثر كثيرًا بعناصر مختلفة مثل مصالح وقوة جميع الأطراف ذات العلاقة .

وعلى أي حال فقد كان المنهج القديم للتخطيط يرى أهمية التركيز في العملية التخطيطية على عمل خطط تُوضح صورة مُستقبلية محددة ودقيقة للوضع المرغوب تحقيقه في المستقبل خلال فترة زمنية محددة . ومع أن هذه الخطط يُفترض تقييمها كل خمس سنوات إلا أنها كانت متأثرة بشدة بفكرة المخطط العام المتصلب Rigid Master Plan الذي يصعب إجراء تعديلات عليه . أما المنهج الجديد والذي ظهر في بريطانيا

وعُرف بمنهج المخطط الهيكلي فقد اهتم بالتركيز على أهداف الخطة وعلى البدائل التي ستحققها تلك الخطط . وكل ذلك أُعد بطريقة مكتوبة ليس المهم فيها هو التركيز على إعداد الخرائط المُفصّلة . والمنهج الجديد يختلف عن منهج جيده Geddes لأنه يركز على تتبع النتائج الممكنة للسياسات البديلة على أن تُقوم تلك السياسات على ضوء أهداف الخطة الأساسية من أجل الوصول إلى السياسة المثلى .

إن المناقشة السابقة للتخطيط كحقل علمي توضح مدى غموض هذا الحقل وهو أمر أقر به كثير من المنظرين[٨] . وعلى العموم يمكن القول إن هناك قاسمًا مشتركًا يتعلق بتحديد ماهية هذا الحقل العلمية وذلك عند التركيز على تعريفات التخطيط التي سبق عرضها ، على الرغم من اختلافها . هذا القاسم هو علاقة الحاضر بالمستقبل ، فالمخطط لايستطيع أن يتجاهل المستقبل في عمل أي خطة كما أنه لن يستطيع الاستغناء عن خبرات الماضي والحاضر عند النظر إلى المستقبل . لذلك نُعرف التخطيط من وجهة نظر شمولية على أنه « ذلك النشاط الذي يمكن أن يستخدم كأداة قادرة على تحويل العلم إلى أفعال على ضوء ربط الحاضر بالمستقبل بالاستناد على مبدأ الأمل » . فنحن لانختلف مع ماسبق مناقشته في أن التخطيط هو القناة التي يُحول خلالها العلم إلى أفعال ، وأنه ذو علاقة بالمستقبل ، ولكننا نضيف مبدأ الأمل كباعث أساسي لنجاح العمل التخطيطي . إن المقصود بمبدأ الأمل هو ترويح النفس عن مشاكل الحاضر بإعطائها الأمل في مستقبل ز اهر . إن نجاح أي خطة يتطلب استقرار الحاضر والاستقرار يمكن الوصول إليه إذا وُجد أمل مُقنع بأن المستقبل سيكون أفضل . نرى في حياتنا اليومية أن كثيرًا من البشر يجدون ويجتهدون ويُعانون صعوبات في الحاضر ، ومع ذلك تجدهم مستقرين في حياتهم والسبب ببساطة هو توفر أمل قوي لديهم في أن المستقبل يحمل لهم أموراً خَيِّرة أو حياةً أفضل . لو أننا من باب الجدل أزلنا الأمل من مخيلة هؤلاء الناس ، أي أصبحت نسبة الحصول على الخير في المستقبل صفراً ، لتاهت حياتهم وفقدوا الاستقرار وتحولوا إلى عناصر مضادة للتطور غير فعالة اجتماعيًا واقتصاديًا وسياسيًا . لذلك فإنه من غير المجدي وضع خطط أو مخططات مستقبلية لاتوفر أملاً قويًا للمستفيدين يؤكد أن هذه المخططات سترتقي بمستوى حياتهم وتفي بمتطلباتهم

الحضرية . إن المُخطط الذي يعتنى بمبدأ الأمل قد ينجح في جعل المستفيدين من الخطة عاملاً إيجابيًا في نجاح تلك الخطة ، أي أن يجعلهم جزءًا من الحل التخطيطي بدلاً من أن يكونوا جزءًا من المشكلة (في حالة عدم توفير أمل مُقنع) .

بعد الحديث المختزل عن التخطيط وماهيته من وجهة نظر شمولية يحين الأوان للتحدث عن مداخل التخطيط . وهناك عدة مداخل للتخطيط تتميز خمسة منها بصيت واسع . هذه المداخل الخمسة هي التخطيط العقلاني Rational Planning ، التخطيط التدرجي Incremental Planning ، التخطيط التفاوضي Transactive Planning ، التخطيط المناصر Advocacy Planning ، والتخطيط الجذري Radical Planning . وكما أشرنا ضمنيًا فإن التخطيط حقل علمي(*) ، والحقل العلمي تجتمع فيه علوم متنوعة في إطار واحد ، لذا نجد أن مداخل التخطيط المذكورة أعلاه قد تكون مستمدة من نظرية صناعة القرار Decision Making Theory وبعض النظريات الأخرى في العلوم الأخرى (على سبيل المثال النظريات الاقتصادية ، والاجتماعية ، والسياسية) . لذلك سيعكس الحديث عن مداخل التخطيط المفهوم الفلسفي لتلك العلوم ونظرياتها .

٣,١,٢ التخطيط العقلاني Rational Planning

التخطيط العقلاني يستمد جذوره من الفلسفة العقلانية التي ساهم في بنائها عدد من المفكرين الغربيين أمثال ديكارت Descartes (١٥٩٦-١٦٥٠م) ، ليبنز Leibniz (١٦٤٦-١٧١١م) وسبينوزا Spinoza (١٦٣٢-١٦٧٧م) . والفلسفة العقلانية ، عند نشوئها ، كانت نقيض الفلسفة التجريبية التي ترى أن التجربة هي المصدر الحقيقي للعلم. فهي (أي الفلسفة العقلانية) ترى أن العلم يمكن الحصول عليه عن طريق الإستدلال السببي بالاعتماد على قوة عقل الإنسان . وعلى أي حال أصبحت هذه الفلسفة هي

(*) لقد استخدمت هذه الترجمة ولا أزعم أنها الأفضل ، ولكن من أفضل الطرق لترجمة المصطلحات والوصول بها إلى ألفاظ لغوية مقبولة هو وضع أقرب ترجمة يراها الكاتب مناسبة ، ثم يتابع بعد ذلك ردود الفعل لتلك الترجمة . ومع الوقت ومع نشر أوراق أخرى في نفس المجال سيتفق المهتمون تدريجيًا على المصطلح المناسب ، وهو المصطلح الذي سيكون أكثر المصطلحات استخدامًا في الأدبيات المستقبلية لموضوع البحث .

الأساس للتخطيط العقلاني الذي يعتبر من أكثر مداخل التخطيط شيوعًا . والحقيقة أن هذا المنهج التخطيطي في هذا القرن استمد نشأته من علوم صناعة القرار التي اعتمدت أساسًا على الفلسفة العقلانية . لقد اجتهد الكثيرون في المساهمة في تطوير التخطيط العقلاني أمثال سايمون Simon و بانفيلد Banfield في الخمسينيات الميلادية من هذا القرن ، و تنبيرقن Tinbergen و درور Dror في الستينيات ، وقد حاول هؤلاء تحديد ماهية التخطيط العقلاني ، فمثلاً وضع بانفيلد خطوات أو مراحل للتخطيط العقلاني وهي باختصار كما يلي :

(١) يضع صانع القرار في اعتباره جميع البدائل الممكنة .

(٢) يتعرف على جميع النتائج الممكنة .

(٣) يختار البديل الذي تُعتبر نتائجه المحتملة هي الأفضل بالنسبة لأهداف صانع القرار .

فلو افترضنا أن هيئة التخطيط الحضري في إحدى الدول أرادت تحديد نظام التدفئة المناسب لإحدى المدن الجديدة ، وكانت الخيارات التي أمامها هي الاعتماد على الكهرباء أو الفحم ، ولو افترضنا أن المعيار الأول لتلك الهيئة هو التدفئة مع المحافظة على نقاء الهواء فإن استعمال الكهرباء قد يكون البديل الأفضل إذا تم اعتبار الخطوات السابقة .

إن تحديد خطوات التخطيط العقلاني كما يراها بانفيليد تعكس إلى حد كبير منهج هذا النوع من التخطيط عند أغلب المخططين . لذلك يتفق الكسندر Alexander مع بانفيلد في تحديد تلك الخطوات ، ويضيف أن العقلانية هي اختيار أفضل وسيلة لتحقيق هدف معين[١٠] . ولكن يجب الإشارة هنا إلى أن كلمة « أفضل » هي كلمة حساسة فأفضل الوسائل من الناحية الاقتصادية مثلاً قد لاتكون أفضل الوسائل من الناحية الاجتماعية أو السياسية . وعلى أي حال فإنه من لمكن القول بأن قرارًا ما هو قرار عقلاني إذا كانت المراحل والخطوات التي سبقت اتخاذه بنيت على أساس عقلاني (أي تمت بطريقة تمثل الخطوات التي اقترحها بانفيلد) . والتخطيط العقلاني يقوم على افتراضات فلسفية أساسية منها إمكانية الحصول على معلومات كاملة والإنفاق على

الأهداف والأغراض . فلايستطيع الإنسان أن يتعرف على جميع البدائل الممكنة إذا لم تتوفر لديه القدرة على الحصول على جميع المعلومات اللازمة لتحديد تلك البدائل . كما أنه لابد أن يتم الاتفاق على هدف أو أهداف معينة من أجل اتخاذ الخطوات العقلانية اللازمة . علمًا بأن هذين الافتراضين ، وخاصة الأول ، يصعب تحقيقه فلايوجد بشر ذو علم كامل . أما بالنسبة للاتفاق على الأهداف فإن الحياة العملية أثبتت صعوبة هذا الافتراض طالما أن القيم والمبادئ تختلف ، وكلاهما عامل مهم في تحديد الأهداف مما يجعل من الصعب الاتفاق على أهداف بعينها .

إن الإنتقادات التي وُجهت إلى التخطيط العقلاني تنبع من افتراضاته ومراحله ؛ لذلك يرى بعض المؤلفين إستحالة صُنع قرار مبنى على أسس عقلانية . فبانفيلد على سبيل المثال يرى إستحالة صنع قرارات عقلانية لأنه من المستحيل أن يكون صانع القرار أو المخطط على علم بجميع البدائل (الحلول) الممكنة والنتائج المترتبة على اختيار أي بديل[١١] . هناك أيضًا انتقادان يمكن توجيههما لهذا النوع من الفلسفة التخطيطية . ففيما يتعلق بالمنظمات أو المؤسسات أو الدوائر العامة والخاصة قد لايكون من مصلحة تلك الدوائر أن تتبع الأسلوب العقلاني في عمل خططها المستقبلية . فمثلاً لو قامت إحدى الدوائر بعرض الحلول الممكنة لقضية أو مشكلة معينة (مثلاً مشكلة اختيار موقع محطة صرف صحي) وهذه الحلول اشتملت على عدة مواقع لوجدنا أن المجموعات المعارضة وسكان المواقع المجاوره قد يعترضون . وبالتالي قد يقول قائل إن تلك الدوائر هي التي جرت على نفسها تلك المشكلة بإعلانها عن المواقع المفترضة[١٢] . أضف إلى ذلك أن إعداد الدراسات التي تحدد أسباب اختيار تلك المواقع والنتائج المتوقعة ، سواءًا كانت سلبية أو إيجابية في حالة اختيار أي موقع ، تصبح مكلفة جدًا (إذا تم اعتبار جميع المواقع الممكنة) من الناحية المادية ، وناقصة علميًا لأن البشر ناقصون ولايمكن لهم أن يصلوا إلى مرحلة الكمال . أما النقطة الأخرى التي تثار حول الأسلوب العقلاني في التخطيط فهي انحياز هذا الأسلوب إلى المركزية في وضع الخطط وتنفيذها . وهذا شيء طبيعي إذا ما افترضنا ، على سبيل الجدل ، أن المخطط يملك معلومات كاملة فإنه لاداعي لأن يسمع آراء الآخرين (وعلى الأخص الفئات المعنية بنتائج الخطة) لأنه يعلم جميع

الحلول الممكنة ونتائجها . هذا الافتراض ، مع أنه من المستحيل تحقيقه عمليًا ، لاشك أنه يؤدي إلى تركيز صنع الخطط في يد قلة من المخططين الذين يعتقدون أنهم يعلمون ماهو الأفضل لمجتمعاتهم .

٣,١,٣ التخطيـــط التـــدريجي Incremental Planning

لاشك أن التخطيط العقلاني أوجد رفضًا كثيراً لفلسفته بسبب عدم ملاءمته للتطبيق في الحياة العملية (مع أن الكثيرين يرون أنه هو الأسلوب المثالي الذي يجب أن يُطمح إليه) لذلك أُقترحت بدائل تخطيطية فلسفية عديدة . أحد هذه البدائل هو التخطيط التدريجي Incrementalism الذي يعود تطويره لكل من دال و ليندبلوم Dall and Lindbloom في الخمسينيات الميلادية و ليندبلوم و بريبروك Braybrook ودرور Dror في الستينيات الميلادية . ويعتبر لندبلوم المتحدث الرئيسي (المُنظر الأول) للتخطيط التدريجي ، كما أنه شن حملة عنيفة على التخطيط العقلاني واصفًا إياه بعدم القدرة على التعامل مع النقص الفكري البشري ، وعدم القدرة على التعامل مع حقيقة عدم كمالية المعلومات[١٣] . كما أنه رأى في التخطيط العقلاني كلفة مادية عالية وضعفًا ملموسًا في تحديد العلاقة بين الحقيقة Fact والقيمة Value [١٤] .

يصف ليندبلوم مراحل التخطيط التدريجي ، أو مايسمونه التدرجية المتقطعة Disjointed Incrementalism كما يلي : يقوم صانع القرار أو المخطط بمقارنة عدد قليل من الحلول الحدية (أي التي تختلف عن الوضع الراهن اختلافات بسيطة) بدلاً من البحث عن كل الحلول الممكنة . بعد ذلك يتم مقارنة النتائج المهمة (ليست كل النتائج) التي قد تترتب على اختيار حل (بديل) وعليه أن يهمل النتائج قليلة الأهمية . ويستمر صانع القرار في عمل تحليل بناء ليتم العودة والنظر إلى المشكلة لرؤية ما إذا كانت هناك تغيرات حدثت ولموازنة العلاقة بين الوسيلة والهدف ، وعلى المخطط أن ينظر إلى المشكلة على أنه لايوجد حل صحيح واحد بل هناك حل أو حلول تقريبية . هذا الحل قد يخفف المشكلة الحالية بمحاولة الابتعاد عن أسبابها بدلاً من محاولة التقرب من الحل الأمثل[١٥] ، ولتوضيح هذا الأسلوب التخطيطي لنأخذ على سبيل المثال مشكلة ازدحام

طريق معين ، فالحلول التدريجية لهذه المشكلة هي حلول تقريبية . هذه الحلول قد تشمل مثلاً توسيع الطريق بإ ضافة مسار أو مسارين ؛ أو زيادة أسعار الوقود لتخفيف الاعتماد على السيارات وبالتالي تقليل الازدحام . نلاحظ أن هذه الحلول لاتشمل تغييرات رئيسية (جذرية) مثل بناء طريق جديد أو إضافة قاطرات متحركة (بناء سكة حديد) . فالحلول التقريبية ، كما هو ملاحظ ، تحاول تخفيف المشكلة إلا أنها لاتطمح إلى الحل المثالي . وقد يقول قائل إن البشر يسلكون في أحيان كثيرة هذا المسلك (البحث عن حلول تقريبية) بدلاً من البحث عن الحل الأمثل ، وبغض النظر عن كون هذا القول صواب أو خطأ فالسلوك البشري لايقود دائمًا إلى المنهج الأفضل .

التدرجيون (اتباع مدخل التخطيط التدرجي) بإقتراحهم صعوبة الاتفاق على الأهداف والاكتفاء فقط بالأهداف التي يمكن تحقيقها بالوسائل الموجودة يرون أن القرار الأفضل أو السياسة المثلى هي تلك التي يتفق عليها صناع القرار ، المخططون ، والمحللون بالإجماع[١٦] ، إنهم يرون القرار المنفذ - بهذا الأسلواب - ماهو إلا خطوات صغيرة في الاتجاه الصحيح وليس حلاً أمثل . ومع أن الفلسفة التدريجية تقترب من الواقع ، إذا ما قورنت بالعقلانية ، إلا أنها لم تنج من الإنتقاد . إن أقوى الانتقادات التي يمكن أن توجه إلى هذا النوع من التخطيط هي معاداته للإبداع وعدم مراعاته لمبدأ الأمل . فمعاداته للإبداع تكمن في بحثه دائمًا عن حلول تقريبية قريبة من الوضع الراهن . فمثلاً في المثال السابق فإن الوضع الراهن هو الطريق في حالته المزدحمة ، والحل التقريبي هو توسعة الطريق بإضافة مسار أو إثنين ؛ فكما هو واضح فإن الطريق وتوسعة الطريق قريبان من بعضهما . لذلك إذا اتخذ المخططون منهجًا تدرجيًا فلايصعب استبعاد إيجادهم حلول إبداعية جديدة لأنهم دائمًا سيبحثون عن حل قريب لما هو موجود . إن معاداة الإبداع قد تؤدى إلى التعارض مع مبدأ الأمل . فالباعث الحقيقي للوصول إلى حل إبداعي ، على الرغم من جميع الصعوبات ، هو وجود أمل قوي لدى المفكر بأن الحل الإبداعي ممكن . إن الاكتفاء بالأهداف التي يمكن تحقيقها بالوسائل المتوفرة فيه معاداة ملموسة للإبداع فإذا طُلب من المفكرين البحث فقط عن الحلول التي يمكن تحقيقها بالوسائل المتوفرة فإن ذلك يقلل من إمكانية إبداعهم مع

العلم أن الإبداع ، أحيانًا ، كفيل بإيجاد الوسائل غير المتوفرة وهذه هي أعظم ثمرات الإبداع .

إن معاداة الإبداع قد تؤدي إلى إضعاف الأمل ، والأمل هو الرابط الوحيد بين الحاضر والمستقبل . وإذا ضعف الرابط بين الحاضر والمستقبل ضعفت الفائدة التي يمكن جنيها من التخطيط لأن أي فلسفة تخطيطية لاتضع اعتبارًا للمستقبل هي فلسفة محدودة .

٤ , ١ , ٣ التخطيط التفاوضي Transactive Planning

المدخل التفاوضي في التخطيط يدور حول التعامل المباشر بين المخطط والمنتفع من الخطة (أهل الحي أو المدينة) . فالمخطط حسب مبادئ هذا المدخل لايقوم بعملية التخطيط لحي أو مدينة مجهولة ومنعزلة عنه . فلابد للمخطط أن يتصل اتصالاً مباشرًا مع الناس الذين يزمع نفعهم بالخطة المقترحة . إذن التخطيط التفاوضي لايجرى لخدمة حي أو منتفعين غير معروفين للمخطط ، فلابد أن يجرى وجهًا – لوجه مع أولئك الناس الذين ستؤثر عليهم قرارات الخطة[١٧] ، هذا المدخل التخطيطي ، في الواقع ، يحاول إعادة بناء المجتمع وتأهيله لنظام إرشادي من الأهمية بمكان ولا ينبغي أن يترك لخبراء التخطيط فقط . بمعنى آخر ، هذا المدخل يرى أن التطوير الاجتماعي (وهو أحد الأهداف الأساسية لأي خطة) يجب أن لايترك للخبراء فقط بل لابد من مشاركة المنتفعين (السكان) في العملية التطويرية .

يعتبر جون فريدمان John Fridmann مؤسس هذا المدخل التخطيطي من خلال إحدى مؤلفاته Retracking America[١٨] . يسعى فريدمان من خلال هذه النظرية التفاوضية للتخطيط لإزالة الجسور بين المخطط (المدعوم بالخبرة الفنية) .والمنتفعين (غالبًا سكان الحي أو المدينة) . وفي هذا المدخل تجري العملية التخطيطية في مجموعات صغيرة من المشاركين حتى يكون التفاعل بين المخطط والمشارك على أعلى مستوى . ومن خلال هذا التفاعل يتم الحوار بين الطرفين ويتم رسم صورة مشتركة للمشكلة الحالية أو الخطة المستقبلية . وفي هذا المدخل تكون عملية التفاعل أو الحوار في حد

ذاتها ، بغض النظر عن النتائج ، ذات أهمية قصوى ، لأن لحوار ينتج عنه تبادل المعلومات بين الطرفين فعلى الأقل سيخرج كلا الطرفين بمعلومات أكثر من تلك التي دخلوا بها .

إن هذه النظرية تهدف إلى إعادة ترتيب المجتمع إلى وحدات صغيرة هي عبارة عن خلايا . هذه الخلايا لها خصائص منها أنه مؤقته ، التفاعل فيها يكون على المستوى الشخصي ، تقود نفسها ، ومسئولة عن أعضاءها . وهذه الخلايا ترتبط هرميًا بنظام من المجالس من أجل التنسيق والإرشاد ، وبعض التحكم المحدود . والواقع أنه بعد النظر في هذه الفلسفة التخطيطية نجد أنه من الصعب جداً ، في الحياة العملية ، ترتيب المجتمع بالطريقة التي تدعو إليها النظرية . إن المشكلة الرئيسية التي تواجه هذا المدخل التخطيطي تكمن في تطبيقه في الحياة العملية ليس فقط لصعوبة التنفيذ بل أيضًا لصعوبة قبوله من الناحية النظرية . إن إعادة ترتيب المجتمع تحتاج إلى قيم على ضوئها تتم عملية القيادة والإرشاد ، ولكن أي تلك القيم أفضل ؟ أهي القيم التي يتفق عليها الناس أو القيم الموروثة ؟ لهذه الأسباب لم تجد النظرية قبولاً في مسقط رأسها (أمريكا الشمالية) ولكنها ظلت فلسفة يمكن الاستفادة من أسباب ضعفها .

٣,١,٥ التخطيط المناصر Advocacy Planning

التخطيط المناصر يقصد به الدفاع عن الفئات الضعيفة (المغمورة) في المجتمع أثناء العملية التخطيطية (الفئات الضعيفة هي تلك المجموعات من الناس التي يصعب عليها الاتصال بمراكز القوى في المدينة لأسباب قد تكون اجتماعية ، اقتصادية ، أو سياسية) ، وفي هذا النوع من التخطيط يتبنى المخطط مواقف ومصالح المجموعات المغمورة ويحاول إظهارها والوصول بها إلى السطح .

والحقيقة أن هذه الفلسفة التخطيطية نشأت في الولايات المتحدة من أجل الدفاع عن حقوق الأفارقة الأمريكيين (الزنوج) في الستينيات الميلادية من هذا القرن . وقد تبنى هذه الفلسفة بول ديفيدوف Davidoff الذي رأى أن الأقليات (الزنوج) ليس لها مشاركة فعالة في رسم مستقبل المدن التي يعيشون فيها[١٩] . وقد استخدم فلسفة منطقية

في تبريره لأفكاره مبدأها أنه في المجتمعات الانتخابية ، كالولايات المتحدة يُفترض أن يساهم ساكن المدينة في اتخاذ القرارات التي تحدد مستقبل مدينته ولكن الواقع ، كما يرى ، غير ذلك . فعلى الرغم من وجود نسبة كبيرة من الزنوج ، على مستوى المدن ، فإنهم ليس لهم تأثير في رسم مستقبل مدنهم .

وعلى الرغم من أن فلسفة التخطيط المناصر ترعرت على يد ديفيدوف إلا أنها في الحقيقة تستند على الفلسفة التعددية . والفلسفة التعددية تنظر إلى المجتمع على أنه مكون من عدة مجموعات ذات مصالح مختلفة ليس لأية مجموعة سلطة مطلقة (أي أن هناك تقارب في السيطرة) بسبب تشتت توزيع القوة في ذلك المجتمع[٢٠] . ولقد ساهم كثير من المفكرين في توضيح الفلسفة التعددية ، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر شمبتر Shmpter في الأربعينيات ، دال Dahl و بولسبي Polsby في الستينيات و دينيس Dennis في السبعينيات . والحقيقة أن التخطيط المناصر ما هو إلا وجه آخر للفلسفة التعددية . فأنصار هذا المدخل يريدون من مجتمعاتهم ، وهي المجتمعات الرأسمالية ، حماية الفئات الضعيفة عن طريق إعطائها الفرصة لتساهم عمليًا في تحديد تكوين البيئة العمرانية التي يعيشون فيها . أضف إلى ذلك أن أتباع هذا المدخل يُحمّلون المجتمع مسئولية توفير الخبراء المتخصصين من أجل مساعدة تلك الفئات في التعبير عن رأيها بأسلوب مثمر . وحيث إن التخطيط المناصر بنى على الفلسفة التعددية فإن افتراضات تلك الفسلفة تنطبق على هذا النوع من التخطيط . وعلى العموم فالتخطيط المناصر يفترض مجتمعًا مكونًا من مجموعات مستقلة ذات مصالح مختلفة كما يفترض أن الإنتخابات وسيلة مهمة للمشاركة الجماعية .

ويرى ديفيدوف ، المُتبنى الرئيسي للتخطيط المناصر ، أن هذا المدخل التخطيطي سيُحسن استخدام وممارسة التخطيط في المدن من عدة نواح . أولاً : سيوفر للعامة اختيارات متعددة (مثلاً خطط مختلفة لتطوير منطقة معينةٍ) حيث إن المجموعات المختلفة ستجد الفرصة لعرض خططها : وهذا العرض لتلك الخطط المختلفة سيريح مصلحة التخطيط من عناء إبتكار خطط متنوعة ، ثانيًا : ستضطر مصلحة التخطيط (وهي غالبًا مؤسسة حكومية يملكها القطاع العام) إلى الاجتهاد في تحضير خطط أفضل

من تلك التي تقدمها المجموعات المستقلة من أجل الفوز باعتماد تلك الخطط . وهذا في حد ذاته سيوجد نوعًا من التنافس قد يؤدي إلى ابتكار خطط أفضل للمدينة ككل[٢١] .

وعلى الرغم من أن الفلسفة المناصرة في التخطيط ذات طابع انساني يهدف نحو تحقيق عدل اجتماعي إلا أنها لم تحقق نتائج ملموسة بسبب افتقادها للواقعية . فالافتراضات التي طرحتها هذه الفلسفة غير عملية . خذ مثلاً الافتراض القائل بأن المجتمع مكون من فئات أو مجموعات مختلفة متقاربة أومتساوية في السيطرة . هذا الافتراض غير عملي ، لأن أغلب المجتمعات تتكون من مجموعات مختلفة في القوة وبالتالي في السيطرة على قرارات تلك المجتمعات . ففي بعض المجتمعات الرأسمالية نجد أن المجموعات التي تملك وسائل الإنتاج ، على الرغم من قلة أعضائها ، تعلب دوراً كبيراً في رسم مستقبل مجتمعاتها بما في ذلك وضع الخطط التنموية والحضرية للمدن والقرى . كما يمكن توجيه إنتقاد آخر لهذه الفلسفة يتعلق بتعريف الفئات الضعيفة . فما هي المعايير التي يمكن على ضوئها تعريف تلك الفئات ؟ فبعض المفكرين يرى أن هذه الفلسفة لم تُعرّف بوضوح تلك الفئات التي ينبغى الدفاع عنها[٢٢] ، بمعنى آخر هل الفئة الضعيفة هي تلك التي لايزيد دخلها السنوى عن حد معين ، أو هي تلك الفئات التي تنتمي إلى عرق معين (مثلا الزنوج في أمريكا) .

٣,١,٦ التخطيط الجذري Radical planning

تُعنى فلسفة التخطيط الجذري بمعالجة مشاكل المجتمع العمراني من جذورها . ويرى مؤيدو هذه الفلسفة أن المداخل التخطيطية السابقة تبحث عن حلول لأعراض المشاكل العمرانية وليس لجذورها . لذلك فأنصار هذه الفلسفة يجدون في التخطيط الجذري وسيلة للتعامل مع أساسيات (جذور) المشاكل العمرانية . وعلى العموم قد يكون نشوء هذه الفلسفة هو ضعف (أو لاواقعية) فلسفة التخطيط المناصر التي رأي بعض المفكرين مثل قودمان Goodman أنها غير ملائمة لحل المشاكل العمرانية[٢٣] . والفلسفة الجذرية في التخطيط نشأت في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات الميلادية أي بعد فترة قليلة لنشوء الفلسفة المناصرة في التخطيط . وعلى أي حال فقد ساهم في

إيضاح التخطيط الجذري عدد من المفكرين منهم قاربو و هسكن Garbow & Heskin[٢٤]، كلاوارد و بيفين Cloward & Piven[٢٥] ، هدسون Hudson[٢٦] ، و فريدمان Fried-mann[٢٧] .

وفي الواقع يمكن تقسيم التخطيط الجذري إلى نوعين ، كما يوضح ذلك هدسون حيث إنه يرى أن النوع الأول يركز على التطوير الشخصي وتنظيم الحي بينما النوع الآخر يهتم بالنظرية السياسية للدولة[٢٨] . والنوع الأول يفضل العمل مع مصلحة (وكالة) التخطيط من أجل تحقيق تغيير أفضل ، بينما يُعرف النوع الآخر بارتباطه بالهيكل الطبقي واعتماده على المواجهة مع المؤسسة التخطيطية من أجل تحقيق التغيير المطلوب . وكما هو واضح فالنوع الثاني من التخطيط الجذري ذو طابع مواجهة مع المؤسسة التخطيطية في المدينة . وكما هو واضح فالنوع الثاني من التخطيط الجذري ذو طابع مواجعة مع المؤسسة التخطيطية في المدينة ، وهذه المواجهة قد تمتد إلى أبعد من حدود المدن وبالتالي تسبب مشاكل أعظم قد تنعكس على الاستقرار السياسي بشكل عام ولهذا قد لايجد مؤيدو هذا النوع من التخطيط الجذري مناصرة واسعة من قبل سكان المدينة أو الحي . والتخطيط الجذري يعتمد على اشراك الساكن (المواطن) في العملية التخطيطية . فهذه الفلسفة تقترح توفير مخططين مطلعين لخدمة الساكنين وتوجيه قوتهم من أجل إحداث تغيير إيجابي . كما أنها تفترض أن يمتلك المخطط مهارات معينة منها القدرة على التخاطب ، الاتصال الفعال ، الإلمام بالنظرية التخطيطية ، الإلمام بمناهج التعليم الاجتماعي ، توفر القدرة التحليلة ، وتوفر الإلمام بأحد فروع العلوم الإنسانية أو الطبيعية ذات العلاقة بالتخطيط .

التخطيط الجذري ، كسابقه لم ينج من النقد . فمثلاً ، المهارات التي يُطلب توفيرها في المخطط قد يصعب تحقيقها . كما يرى بعض المفكرين أن المخططين بمجرد وصولهم إلى موقع صناعة القرار يتحولون إلى جزء مما كانوا يريدون تغييره[٢٩] . أما الإنتقاد الآخر لهذه الفلسفة هو إدعاؤها بأنها ملائمة عمليًا أينما وجدت الرأسمالية . وعلى الرغم من تلك الإنتقادات إلا أن التخطيط الجذري ، ممثلاً بشقة الأول والذي يركز على التطوير الشخصي وتنظيم الحي ، يعتبر من أقوى مداخل التخطيط حينما ينظر

إليه نظرة مجردة على أساس فلسفي وعلمي .

إن المناقشة السابقة لمداخل التخطيط تهيء الوضع لإيضاح بُعد مهم لايجب إغفاله وهو تحديد ما إذا كانت هذه المداخل مرحلية ، خُطُوية ، (Procedural Approaches) أو جوهرية (Substantive Approaches) . والمداخل المرحلية هي التي تركز على خطوات عمل الخطة أو المخطط مثل التخطيط العقلاني والتخطيط التدرجي ، بينما تركز المداخل الجوهرية على جوهر المشكلة التخطيطية الذي يجب تبنيه مثل التخطيط المناصر والتخطيط الجذري . والسؤال الذي قد يتبادر إلى الذهن هو أيهما أفضل التركيز على المداخل المرحلية أو المداخل الجوهرية خاصة في عالمنا العربي ؟ وللإجابة على هذا السؤال فإنه من الأفضل تقديم النظرة الإسلامية في هذا السياق ثم استقراء النهج الحالي للتخطيط في العالم العربي .

٤ - النظـــرة الإسلاميـــة

على الرغم من قلة المصادر والدراسات التخطيطية الإسلامية - ضمن المفهوم الخاص بهذه الورقة - والتي يمكن الاعتماد عليها لاستقراء النظرة الإسلامية للتخطيط فإن الشريعة الإسلامية غنية جداً بالأسس والثوابت التي يمكن الاستفادة منها في توجيه الفكر التخطيطي . فحديث المصطفى عليه الصلاة والسلام « لاضرر ولاضرار » يمكن اعتباره أساسًا موجهًا لتنظيم جميع العلاقات العمرانية بين جميع الأطراف المستخدمة للبيئة العمرانية . فعلى سبيل المثال يمكن وضع الأنظمة والقوانين العمرانية بناءًا على الحديث الشريف السابق . وقد كانت أغلب القرارات والتي يمكن تسميتها قرارات تخطيطية في العصور الإسلامية الأولى تستند على ذلك الحديث . فأي خطة عمرانية أو تطوير عمراني هو في الأصل مقبول مالم يكن منه ضرر للحق العام أو الحق الخاص .

ونظراً لأن التخطيط الفعلي كحقل علمي مستقل قد ظهر تقريبًا في بداية هذا القرن ، فإنه من الصعب ربط المداخل التخطيطية الغربية ، والتي سبق مناقشتها وعرضها ، بالفلسفة الإسلامية للتخطيط وذلك للبون الزمني الشاسع بينهما . وعلى أي الأحوال فقد تعرضت الكثير من دراسات المتخصصين والمهتمين بالعلوم العمرانية إلى

المنهج الإسلامي العمراني وهو أقرب وجه إسلامي يمكن ربطه بالتخطيط العمراني المعاصر . ويمكن تصنيف هذه الدراسات إلى فئتين : فئة اهتمت وركزت على المفهوم التحليلي للفراغات العمرانية في المدن الإسلامية ، وفئة اهتمت بالتركيز على طرق صناعة القرار التي ساهمت في ظهور الحيزات العمرانية في المدن الإسلامية . وفي معظم الحالات لم تهتم الدراسات السابقة بالعمق الفلسفي للنهج التخطيطي الاسلامي – ضمن مفهومه من خلال سياق هذه الورقة – والقليل أيضًا من الدراسات العمرانية ، بصفة عامة ، اهتم بالنهج التخطيطي المعاصر في العالم العربي . ونظرًا لأهمية الأخير لأهداف هذه الورقة فسيتعرض الجزء التالي لاستقراء النهج الحالي للتخطيط في العالم العربي .

٥- فلسفة التخطيط في العالم العربي

ان المتمعن في النهج التخطيطي الحالي في العالم العربي سيجد أن الأسلوب التخطيطي في العالم العربي قريب من الفلسفة العقلانية والتي تعتمد على المركزية حيث يسهل تحديد الأهداف والاتفاق عليها(*) . والمتتبع للسياسة التخطيطية العمرانية في العالم العربي يجد أنه من الممكن وصفها بأنها مستلهمة من المبدأ العقلاني المقود بنوع من التخطيط الرد – فعلي Reactionary planning مع التركيز في أغلب الأحوال على التخطيط الطبيعي Physical planning وإهمال الجوانب التخطيطية الأخرى . فالجهة المخُططة غالبًا ماتكون جهة حكومية مزودة بمجموعة من التكنوقراطيين المتخصصين في علوم التخطيط الحضري ، ويُفترض في هذه الجهة أنها أعلم من المجموعات الأخرى المستفيدة من العملية التخطيطية ، وأن غايتها القصوى وضع خطط وتصورات عمرانية تخدم جميع فئات المجتمع بطريقة عادلة في إطار مفهوم المصلحة

(*) من المعروف أن غالبية المدن العربية تعتمد على الحكومة المركزية اعتمادًا أساسيًا في تمويل معظم نشاطاتها وخدماتها البلدية . وإذا افترضنا أن الاستقلالية المالية للمدن (أي القدرة على توفير جميع المرافق والخدمات الحضرية من المصادر المحلية دون الحاجة إلى دعم الحكومة المركزية) هي شرط أساسي للاستغناء عن الإدارة المركزية فإنه يمكن القول إن العقلانية التخطيطية بشقها المركزي هي الأقرب واقعيًا لإدارة معظم المدن العربية في الوقت الحالي .

العامة . ويُفترض توفر المعلومات لهذه الجهة بصفتها ممثلة للدولة ، ونظراً لأن هذه الجهة تمثل طرفًا واحداً فإنه يفترض إمكانية الاتفاق على الأهداف . وهذه الافتراضات تُمثل فلسفة التخطيط العقلاني (وهذا مايدعو إلى وصف الفلسفة التخطيطية في العالم العربي بأنها مستلهمة أو محاكية لفلسفة التخطيط العقلاني) . وعلى العموم فإن كثيراً من المؤسسات التخطيطية في العالم بما فيه العالم العربي تؤمن بإمكانية إحتواء الافتراضات السابقة ومجاراتها .

وهناك أمثلة عديدة توضح كيف أن العقلانية بمفهومها الحالي كانت وماتزال الفلسفة السائدة في التخطيط الحضري في عالمنا العربي ، وهذا على الرغم من أن هذه الفلسفة قد تخلت عنها المهنة التخطيطية في أمريكا الشمالية وهي من أهم المناطق التي ساهمت في ظهورها في المقام الأول[٣٠] . على سبيل المثال لننظر إلى كيفية تخطيط الأحياء في أغلب المدن العربية . يتم التخطيط غالبًا من قبل طرف واحد وغالبًا مايكون هذا الطرف جهة حكومية تمثل المؤسسة التخطيطية في المدينة المعنية (وحتى وإن كان واضع الخطة مكتب استشاري خاص فهو في هذا السياق جزء من تلك المؤسسة لأنه يعمل لها) . هذه المؤسسة حُددت من قبل الدولة لكونها مؤهلة فنيًا بمجموعة من الخبرات المتخصصة في التخطيط الحضري . يقوم المخططون في هذه المؤسسة بتخطيط حي أو وضع مخطط تطويري لمنطقة ما مُملين قيمهم ولو بطريقة غير مقصودة على المخطط أو الخطة العمرانية . وكما يقول الفيلسوف كانت Kant فإن الإنسان (أي إنسان كان) يرى العالم والبيئة المحيطة من خلال عدسة شفافة لايستطيع أن يزيلها أبداً عن عينه ، وهذه العدسة ملونة بالقيم والمبادئ التي نشأ عليها ذلك الإنسان[٣١] . وهذا القول ينطبق على المُخطط أيضًا والذي سيرى المشكلة التخطيطية من خلال قيمه ، وسيضع الحل التخطيطي من خلال قيمه أيضًا . وهذا يعنى أن القيم التخطيطية لهؤلاء المخططين ستمرر إلى جميع المستخدمين للحي أو المنطقة المعنية . وهذا يعنى أن التخطيط العقلاني يتطلب وجود مخططين مثاليين ذوي قيم مثالية تُحقق الرضى لجميع فئات المجتمع كي يمكن وضع خطط عمرانية مثمرة بمقياس المجموعات المستفيدة . وإذا لم يكن من السهل إيجاد هؤلاء المخططين من البيئة المحلية فهل يمكن للمخططين الذي ينتمون إلى بيئات

وحضارات مختلفة أن يقوموا بهذا الدور ؟

ومن الأمثلة الواقعية على مجانبة الصواب من قبل العقلانية التخطيطية مراحل تخطيط وتطوير مدينة السادات حيث تم وضع الأهداف والمخطط العام للمدينة من قبل مجموعة من المخططين الأجانب والمحليين مُملين بذلك قيمهم على المستفيدين والذين يُفترض أن يصل عددهم إلى ٥٠٠,٠٠٠ نسمة في عام ٢٠٠٢[٣٢] . ولم تراع الخطة المستفيدين بإشراكهم في مراحل التخطيط والتطوير فحدث أن الغالبية من السكان المفترض أن ينزحوا إلى مدينة السادات آثروا البقاء في القاهرة ومجتمعاتهم العمرانية الأخرى وعدم الانتقال إلى المدينة الجديدة حتى أن العدد الحالي للسكان في المدينة لايتجاوز ٢٥,٠٠٠ نسمة وذلك بعد ١٧عامًا من تخطيطها . ومع أن عدم مشاركة السكان في العملية التخطيطية ليس هو السبب الرئيسي والوحيد لعدم نجاح مشروع هذه المدينة (اختيار موقع المدينة وانتقال مصانع الصلب من المدينة إلى مناطق أخرى من الأسباب الأخرى) ، إلا أنه كان سببًا ضروريًا ، وقد لايكون كافيًا ، لعدم تحقيق الأهداف التخطيطية لهذه المدينة . وليس الهدف من ذكر هذا المثال مدينة بعينها ولكن وكما يقول بعض المخططين : الفشل في المهنة التخطيطية يكون أكثر وضوحًا من النجاح[٣٣] .

وتختلف مهنة التخطيطية عن كثير من المهن في كون منتجها النهائي يؤثر على عدد كبير من الناس ، فالطبيب مثلاً عندما يُخطئ في علاج مريض ما فإن المتضرر هوشخص واحد فقط بينما في حالة المخطط الذي يضع حلاً تخطيطيًا غير مناسب فإن المتضررين من هذا الحل سيكونون بالآلاف . وهذا يؤكد الدور الحرج للمخطط في تشكيل البيئة والمجتمع الذي يتعامل معه . ومع أن ذلك من المآخذ على التخطيط العقلاني بسبب مركزته في وضع الخطط ، إلا أنه قد يكون مناسبًا للمدن التي مازالت في طور النمو والتطور وهي الحال مع عدد لابأس به من المدن العربية . والمدن التي مازالت في طور النمو والتطور قد تحتاج إلى المركزية التخطيطية إلى أن تتوجه وتنهض على أقدامها ويزداد مستوى الوعي الوطني لدى قاطنيها ، وبعد ذلك يمكن العمل على لامركزية الخطة واشراك جميع المجموعات التي قد تتأثر سلبًا أو إيجابًا بالعملية التخطيطية .

ومن الملموس أيضًا أن كثيراً من الحلول التخطيطية ظهرت كردود فعل لمشاكل عُمرانية قائمة ، وهذا مايمكن تسميته بالتخطيط الرد فعلي . ومن الأمثلة على هذا النوع من الحلول استخدام إشارة مرور من نوع خاص ، في بعض المدن العربية ، تتكون من الشمعات الثلاث المعروفة (الخضراء والحمراء والصفراء) بالإضافة إلى ثلاث شمعات أخرى ذات حجم أصغر (حوالي النصف) موقعه في منتصف العمود للإشارة كي يتمكن قائد العربة الذي يقف تحت هذا العمود من معرفة أي الشمعات قد حانت دورة إضائتها المرورية . وقد كان أحد أسباب تطوير هذه الإشارة هو أن بعض قائدي العربات يتجاوز – أثناء انتظاره عند الإشارة – خط التوقف معتمداً على مراقبة الإشارة الأخرى التي تقع على الطرف البعيد من التقاطع والتي أزيلت عند تطوير الإشارة المستخدمة حاليًا لإجبار السائق على التوقف قبل خط التوقف . وتطوير هذه الإشارة يمثل رد فعل لسلوك بعض قائدي السيارات وهذا السلوك هو أحد أعراض مشكلة مرورية ولا يمثل جذورها . ولم تُجد هذه الطريقة حيث أنه وُجد ، وبدلالة إحصائية ، أن تجاوزات خط التوقف تحدث في التقاطعات المعالجة بالطريقة المستحدثة أكثر منها في التقاطعات التي لم تحدث لها المعالجة[٣٤] . وليس سلبيًا هذا النوع من التخطيط مادام يؤخذ على أنه استثناء وليس قاعدة أي أن يكون استخدام هذه الحلول محدوداً زمانيًا ومكانيًا .

والمشاكل العمرانية ظهرت في المقام الأول بسبب ضعف التخطيطات السابقة أو انعدامها . فكلما كان التخطيط مدروساً كلما قلت المشاكل العمرانية المستقبلية وبالتالي قل الاعتماد على التخطيط الرد فعلي والذي غالبًا مايتعامل مع المشاكل العمرانية من منظور وقتي مغفلاً بذلك الأوجه الأخرى . فعلى سبيل المثال قد يعاد تصميم تقاطع طريقين بسبب وقوع حادث أدى إلى وفيات وقد يؤخذ هذا التصميم ، وإن كان يمثل حلاً وقتيًا ، ويُعمم على أجزاء كثيرة من المدينة ليصبح أحد مركبات العملية التخطيطية . ولو افترضنا حدوث مشاكل عمرانية عديدة وتم تعميم ردود الفعل لها كي تكون حلولاً تخطيطية فإن هذه الحلول تمثل – في مجموعها – تخطيطًا رد فعليًا .

والتخطيط في المدينة العربية يتعامل كثيراً مع أعراض المشاكل العمرانية دون النظر إلى جذور تلك المشاكل فلنأخذ على سبيل المثال القوانين البلدية في بعض المدن

العربية والتي تُلزم المستثمرين العمرانيين بتوفير كراجات (مواقف سيارات) ، في المباني المتعددة الأدوار كي يتمكن – على الأقل – مستخدمو تلك المباني من الانتظار بيسر وسهولة ، وكيف أن الملاك يزيلون تلك الكراجات بعد الحصول على رخصة البناء[٣٥] . وكما يتضح فإن عدم التزام المستثمر بتلك القوانين يؤكد على أن مشكلة توفير المواقف هي أعمق بكثير من ذلك ، وأن حلها يتطلب النظر في أنظمة التخطيط والبناء وإمكانية تطبيقها . كما أن ذلك بدون شك يتطلب تطويراً حضاريًا قبل أي تطوير إداري مُقترح .

إن توجيه الحلول لأعراض المشاكل ليس مرفوضًا على الإطلاق ، فأحيانًا تفرض الظروف البحث عن حلول سريعة لمشكلة قائمة لايسمح الوقت بتقصي جميع جذورها ، إلا أن هذا لايعنى اختيار حل مؤقت يُهمل النظرة البعيدة المدى . بمعنى آخر فإن الحلول لاتمثل منحى سلبيًا مادامت تأخذ المنهج التكتيكي Tactical (أي الحل المؤقت الذي يأخذ في الاعتبار النظرة المستقبلية) .

١ , ٥ الفلسفة التخطيطية الملائمة في المدينة العربية والنموذج التخطيطي المقترح

يمكن القول إن الفلسفة العقلانية هي أقرب فلسفة قادت ومازالت تقود التخطيط في العالم العربي . وعلى أي حال فإنه من الصعب تحديد أي مدخل من مداخل التخطيط الخمسة ، والتي سبق عرضها وتحليلها في بداية هذه الورقة ، يمكن أن يكون المدخل التخطيطي المناسب لتطوير المدن في العالم العربي وذلك لكون تلك المداخل هي نتاج بيئات مختلفة تمامًا عن البيئة العربية ، وأيضًا لتباين مراحل تطور المدن العربية واختلاف تركيباتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وعلى العموم ، يمكن القول إن مستقبل المدن العربية التي قطعت أشواطًا تطورية مُميزة قد لايكون في المداخل التخطيطية ذات الطابع المرحلي كالتخطيط العقلاني والتدرجي ، بل في محاولة الإستفادة من المداخل التخطيطية التي تنظر إلى القضايا العمرانية من جذورها كالتخطيط الجذري . والسبب الرئيسي في ذلك هو أولاً : أن المداخل الأولى لا تنظر إلى المشاكل من جذورها ، فعلى سبيل المثال تصاحب مواسم الأمطار – على الرغم من قلتها في العالم العربي – مشكلة سيول في بعض المدن العربية . والسبب هو أن معظم

الحلول تتعامل مع أعراض هذه المشكلة وليس مع جوهرها . فأغلب الحلول تتعامل مع إنشاء عبارات للمياه أو توفير صهاريج شفط لسحب المياه التي تتجمع أثناء تلك المواسم . أما الحل الجذري – والذي غالبًا مايكون غير مأخوذ به – ، فهو تطوير مناطق عمرانية تتعامل مع السيول إيجابيًا ولاتسبب لها أي عوائق أثناء حركتها الحرة خلال مواسم الأمطار . ثانيًا : أن هذه المداخل لاتعير اهتمامًا مميزاً لمشاركة المستفيدين في العملية التخطيطية بل تؤكد على إبقاءها في يد المخططين ذوي العلم التقني التخطيطي ، بينما المداخل التالية تنظر إلى مشاركة الفئات ذات العلاقة (مثلاً سكان الحي المعنيين) كأساس مهم في نجاح أي خطة عمرانية .

وبصفة عامة فإن مداخل التخطيط ، إذا أُخذت كما هي ، قد لاتلائم البيئة العربية مالم يكن هناك نوع من تكييف هذه المداخل للوضع القائم في المدن العربية ، فالفلسفة العقلانية تتطلب وجود مصادر يصعب تحقيقها ليس فقط في المدن العربية « النامية » بل حتى في المدن المتقدمة .ومع أن التخطيط العقلاني يمثل فلسفة مثالية جذابة لأن تكون قائدة للعملية التخطيطية إلا أن التطبيق العملي لها يؤدي إلى مركزة وضع الخطط وهو مالايناسب مدنًا تتطور بخطي متصلة مثل بعض المدن العربية . أما بالنسبة للتخطيط التدرجي ففيه معاداة للإبداع حيث إنه دائمًا يدعو إلى البحث عن حلول تقريبية قريبة من الوضع الراهن بالنسبة للمشكلة العمرانية وبالتالي يتفق مع الرد – فعليه التخطيطية في الجانب الوقتي ، أي أن حلوله ذات سمة مؤقتة . وفيما يتعلق بالتخطيط التفاوضي فهو ، كما سبق أن وُضح ، غير عملي في بلاده التي نشأ فيها ، وبالتالي فمن باب أولى ألا يجد طريقه إلى النور في البلدان العربية . فعلى سبيل المثال كيف يمكن ترتيب المجتمع إلى وحدات صغيرة مرتبطة هرميًا بمنظومة المجالس البلدية ؟ وإن أمكن – على سبيل الجدل – هل سيكون ذلك مقبولاً سياسيًا واجتماعيًا في البيئة العربية ؟

وعندما يأتي الحديث عن التخطيط المناصر فحاله ليس أفضل مما سبقه مع أنه يمثل فلسفة ذات قيم أخلاقية تدعو إلى الاهتمام بالفئات الضعيفة في المجتمع وإعطائها دورها في تشكيل بيئتها العمرانية . والتخطيط المناصر مازال موضوعًا حيًا مثيراً للنقاش والتحليل على الرغم من مضي ثلاثة عقود على نشأته[٣٦] . والعقبة في تبني هذه

الفلسفة تكمن في صعوبة تطبيقها في الحياة العملية ، فكيف يُمكن تعريف الفئات الضعيفة في المجتمع العربي ، والذي تلعب فيه العواطف دوراً أساسيًا في تسيير أموره . أما بالنسبة للتخطيط الجذري فقد تكون له ميزات ليست في سوابقه من المداخل الأخرى حيث إنه يتعامل مع المشاكل التخطيطية من جذورها بدلاً من معالجة أعراضها وقد أوضح أهمية هذا المدخل العديد من المفكرين مثل فريدمان[٣٧] . إلا أن هذا النوع من التخطيط يتطلب مهارات عالية قد يصعب توفرها في المُخطط بالإضافة إلى إحتمالية عدم استيعابه سياسيًا و اجتماعيًا في البيئة العربية .

والحديث عن المداخل التخطيطية السابقة يوضح صعوبة قبول أي منها بدون تكييف ملائم للبيئة العربية . لذا فإن هذه الورقة ستقترح أنموذجًا تخطيطيًا يستفيد من المداخل السابقة ويحاكي بعضها . وهذا الأنموذج يُفترض فيه الملائمة للمدن العربية المتطورة مدنيًا وخدميًا . إن الأنموذج المقترح هو تخطيط جوهري لامركزي يستند على مبدأ الأمل . وهو بإختصار منهج يدعو إلى وضع حلول جوهرية لاوقتية للمشاكل العمرانية مع الاعتماد على اللامركزية التخطيطية في الوصول إلى تلك الحلول سواءً في الأسلوب الإداري النظري أو في فلسفة صياغة الحل نفسه . فعلى سبيل المثال لابد أن تعكس فلسفة صياغة الحل الظروف المحلية المحيطة حيث إنه من الصعب إيجاد حل نموذجي يناسب جميع المدن والمناطق حتى وإن كانت تقع في دولة واحدة . ولنأخذ تخطيط الأحياء السكنية كمثال هنا ، فالمخطط الناجح هو الذي يعكس التركيبة الاجتماعية المحلية ، المظهر الطبوغرافي المحلي ، الوضع الاقتصادي المحلي ... الخ . ومن الصعب تحقيق ذلك مالم يكن هناك توجه لاعتماد فلسفة تخطيطية جوهرية تعني بتغيير فكري في العملية التخطيطية نفسها .

والمنهج الجوهري المقترح يدعو إلى إشراك الساكن في العملية التخطيطية ، كما هي الحال مع التخطيط التفاوضي والمناصر والجذري . والتخطيط الجوهري اللامركزي يتفق مع المدخل العقلاني في أهمية المثالية إلا أنه لايحتم الوصول إليها بل يحاول استخدامها كوسيلة توجيهية تقود العملية التخطيطية باتجاه الوضع المثالي المأمول . وتقر هذه الفلسفة بعدم امكانية الوصول إلى الوضع المثالي إلا أنها ترى في محاولة الاقتراب

منه ، وبالتالي محاولة العمل به ، رقيًا بالمستوى التخطيطي وبالتالي بالناتج النهائي والذي سينعكس ماديًا على البيئة العمرانية .

الحلول الجوهرية قد تكون مكلفة في البداية وغير مُحبذة من قبل الكثيرين لأنها ستؤدي إلى تغييرات كبيرة ، إلا أنه يُفترض أن توفر حلولاً مضمونة على المدى الطويل . ومن المهم جداً أن تُختار هذه الحلول بطريقة غير مركزية وتُنفذ بطريقة غير مركزية لأن مركزة وتعميم الحلول التخطيطية على مختلف مناطق المدينة غير مضمون النتائج ، وقد تنتج عنه سلبيات عديدة . وهذا المدخل التخطيطي المقترح يفترض استقراراً مستمراً لأنه سيعكس حلولاً طويلة المدى . ويمكن تحديد خطوات المدخل المقترح بما يلي :

- التعرف على المشكلة التخطيطية وتحديد نطاقها .
- تحديد الأهداف التي يُرغب في الوصول إليها مع التركيز على تلك الأهداف التي قد تحقق بعض المثاليات التي يطمح إليها المجتمع (مثلاً في المجتمع العربي يركز على المثاليات الإسلامية كوضع مخطط عمراني يفي بإحتياجات جميع سكان الحي المعني بطريقة عادلة) .
- التعرف على جميع الحلول الممكنة .
- تقسيم الحلول إلى نوعين : حلول جوهرية و حلول غير جوهرية .
- استبعاد جميع الحلول غير الجوهرية .
- اختيار الحلول الجوهرية والتي يمكن أن تُربط بأمل قوي قابل للتحقيق .
- تنفيذ جميع الحلول بطريقة لامركزية .
- تنفيذ الحل المُختار في منطقة مكانية محدودة للإيفاء بمتطلبات اللامركزية (على سبيل المثال يُنفذ الحل على مستوى حي واحد بدلاً من تنفيذه على مستوى المدينة) .
- اعتبار الحل المُنفذ على أنه ليس الحل الأمثل ويتم تنقيحه وتعديله لتقريبه من الحل الأمثل .

ومن أجل توضيح هذا المدخل فلنفترض وجود مشكلة عمرانية يكون سببها عدم احترام الأنظمة المرورية في مدينة ما ، وتتمثل هذه المشكلة في كثرة الحوادث المرورية

على أحد الطرق العمرانية . ولنفترض أن هناك حلين بديلين أولهما وضع رجال مرور على ذلك الطريق لتيسير الحركة وضبطها . أما الحل الآخر فهو يقتضي وضع نظام جديد للحركة يحدد تكلفة المخالفات وطريقة معالجتها وطريقة تطبيقها . وحسب الأنموذج المقترح فإن الحل الأول هو وقتي رد - فعلي وليس حلاً جوهريًا لأنه سيزول بمجرد زوال المؤثر (رجل المرور) . أما البديل الآخر فهو حل جوهري لأنه وضع حل يتعامل مع أساس المشكلة وهو عدم احترام أنظمة المرور ، وهو بالتالي حل مقبول حسب النموذج المقترح . وهذا مثال بسيط وليس شاملاً لكل محتويات التخطيط الجوهري المقترح ولكنه قد يعطى فكرة عن المقصود بهذا النوع من التخطيط .

٦- تقييم الأنموذج والمداخل السابقة في ضوء قطبين فلسفيين مميزين : المثالية والعملية الواقعية

في هذا الجزء من الورقة ستتم مقارنة النموذج المقترح مع المداخل التخطيطية والتي سبق وأن قدمت وحللت في بداية هذه الورقة . وهناك معايير مختلفة ومتعددة يمكن أن تبنى عليها المقارنة ، وحيث إن هذه الورقة تعاملت مع المنظور الفلسفي للتخطيط فإننا سنحدد معيارين فلسفيين لتقييم الأنموذج المقترح والنماذج الخمسة السابقة . وهذان المعياران هما المثالية Idealism والعملية الواقعية Pragmatism . وسيتم توضيح هذين المنهجين ثم اختبار المداخل السابقة على ضوئهما .

المثالية منهج فلسفي ذو شقين : الشق الأول يرى أن وجود الأشياء المادية مرتبط بوجود عقل يدركها . ويعود تطوير هذا المنهج إلى القرن الثامن عشر الميلادي على يد بيركلي Berkely . وكان بيركلي يرى أن خواص المواد توجد فقط عندما تُدرك وأن الحواس الإنسانية هي التي تدرك تلك الأشياء ، وبالتالي فإن وجودها مرتبط بوجود الحواس الإنسانية . ثم جاء كانت Kant وأضاف إلى هذا المنهج وجعله معروفًا أكثر حيث رأى أن المثالية تتبع من نظرية المعرفة وترتبط بالمظهرية موضحًا أن العلم عن المواد أو الأشياء محدود في الجزء الظاهر منها فقط . ويرى كانت أن الإنسان يرى العالم من خلال عدسة ملونة ومكونة من تركيبة مُعقدة (القيم والنشأة) وبالتالي فإن العالم الظاهر

له تحدده تلك العدسة[٣٨] .

أما الشق الثاني : وهو الذي يهم هذه الورقة ، فهو يعنى بالمثالية من منظور أخلاقي . ويمكن تعريفها على هذا الأساس : إنها تصور لحالة ينتج عن تحقيقها الرضاء الكامل ، وهي الحالة التي تمثل الكمال والنموذج الذي يحتذى به والذي يُفترض أن تُقيم على ضوئه الإنجازات[٣٩] . والمثاليات في هذه الحالة يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام : (١) مثاليات يمكن تحقيقها نظريًا وعمليًا ، (٢) مثاليات يمكن تحقيقها نظريًا لكن يكاد يكون من المستحيل تحقيقها عمليًا . (٣) مثاليات لايمكن تحقيقها عمليًا ولانظريًا وبالتالي هي أقرب للخيال من الواقع ، ومن الأمثلة على النوع الأول أن يلتزم رئيس دائرة معينة أن يعامل جميع موظفيه أو من يعمل تحت إمرته بعدل ويطبق هذا الإلتزام واقعيًا . ومن الأمثلة على النوع الثاني أن يلتزم قائد دولة أن يعامل كل أفراد شعبه بالتساوي المطلق بدون أي تفريق لأي سبب كان ، وهذا من الصعب جدًا تحقيقه حيث لم يسجل التاريخ من حقق ذلك باستثناء المعصومين من الخطأ كالمصطفى عليه الصلاة والسلام . ومن الأمثلة على النوع الثالث أن يعد قائد دولة يمر خلالها نهر أن يوفر لجميع مواطنيه أراض زراعية تقع على النهر مع العلم أن مساحة الأراضي التي تقع على ذلك النهر أقل بكثيرٍ من أن تفي بعدد المواطنيين . وكما وهو واضح فهذه الحالة المثالية لايمكن قبولها نظريًا ولاعمليًا . والقسم الثاني من المثاليات هو المقياس المستخدم هنا لأنه يوفر طموحًا قويًا بالوصول إلى الحل الأمثل ولكنه يعترف بصعوبة وعدم عملية جعل تحقيق الحل الأمثل هو المعيار الأساسي للحكم على نجاح البديل .

أما العملية الواقعية فهي فلسفة ظهرت كرد فعل للمناهج الفلسفية التقليدية حيث إنها تنظر إلى أي فلسفة من خلال قدرتها على التأثير على الواقع . فالنظرية الفكرية المقبولة في معيار هذه الفلسفة هي تلك التي يكون لها تأثير في الحياة العملية . فعلى سبيل المثال فإن النظريات التي تحدد عمر كوكب الأرض بعدد من ملايين السنين ليس لها قيمة مادية إذا ماقيست من خلال فلسفة العملية الواقعية لأن كون عمر الأرض ١٠٠مليون سنة أو ١٠ آلاف سنة لايؤثر تأثيرًا ماديًا واضحًا في حياة البشر . ومن أوائل من طور هذه الفلسفة مفكر يدعي بيرس Pierce [٤٠] ، ولكن هذه الفلسفة بدأت تأخذ

صورتها الأوضح على يد عدد من المفكرين أمثال جيمس James و ديوي Dewey[٤١] . وقد عرف هذه الفلسفة كالدويل Caldwell على أنها فلسفة مفهومها الأساسي أن الأفكار الحقيقة هي الأفكار التي يمكن تطبيقها واثبات عمليتها[٤٢] . بمعنى آخر فإن الأفكار التي لايكون لتبنيها أثر على الواقع لاقيمة لها . ولقد أضاف جيمس فكرة القيمة النقدية Cash Value والتي يُقصد بها أن الأفكار التي لاتؤثر على الواقع ذات قيمة نقدية صفرية[٤٣] . ومن المثال السابق والذي عنى بعمر كوكب الأرض يمكن القول إن القيمة النقدية لتحديد عمر الأرض تساوي صفراً .

وبعد التقديم للمثالية والعملية الواقعية ستتم مناقشة المداخل الخمسة الأساسية والأنموذج المقترح من خلال منظور هاتين الفلسفتين . والجدول التالي سيوضح مبدأية هذه المناقشة .

المدخل التخطيطي

المعيار الفلسفي	العقلاني	التدرجي	التفاوضي	المناصر	الجذري	الجوهري
المثالية	+	−	●	●	+	+
العملية الواقعية	−	+	−	−	●	+

+ تمثل نقطة قوية
● تمثل نقطة متوسطة
− تمثل نطقة ضعيفة

إن مثالية التخطيط العقلاني تجعله يسجل نقطة قوية في معيار المثالية حيث إنه ينتمى إلى القسم الثاني من المثاليات (مقبول نظريًا وصعب التحقيق عمليًا) ولأنه يفترض أساسًا وجود مخططين مثاليين تتوفر لهم جميع المعلومات وقادرين على اتخاذ قرارات تخطيطية تحقق الأهداف المثالية للمجتمع . كما أن الخطوات التي يجب أن يتبعها المخطط حسب مبادئ هذ المدخل لحل مشكلة عمرانية أو وضع خطة عمرانية هي مثالية أيضًا حيث يُفترض أن يضع المخطط في اعتباره جميع الحلول البديلة الممكنة بالإضافة إلى أن يكون المخطط عالمًا بكل النتائج الممكنه لكل بديل ، ثم يختار ذلك البديل الذي توافي نتائجه الأهداف المرجو تحقيقها . والمثالية جيدة إذا أُستخدمت

كفلسفة قائدة ، إلا أنها في التخطيط العقلاني يُنظر إليها كمنهج فكري يمكن تطبيقه بنجاح . وهذه هي إحدى نقاط ضعف العقلانية التخطيطية . وعند اختبار هذا المدخل في ضوء العملية الواقعية فإنه من الواضح جداً صعوبة تطبيقه فمن الصعب – إن لم يكن من المستحيل – إتباع الخطوات العقلانية السابقة للوصول إلى البديل المناسب . ولهذا السبب فإن المدخل العقلاني يسجل نقطة ضعيفة في اختبار العملية الواقعية . ومن الملاحظ أن المدخل العقلاني ، خصوصًا عند اتباعه في الدول النامية ، يتحول إلى تخطيط مركزي لايعتبر إلا الحلول والخطط التي تعكس قيم قلة من المخططين المتواجدين حول مراكز صناعة القرار .

أما التخطيط التدرجي فهو ضعيف حين وزنه بميزان المثالية ، فهو لايطمح إلى تحقيق حلول وبدائل رائدة وهو بذلك يغفل بُعداً مهمًا في التخطيط وهو الإبداع الذي لايمكن أن يُحقق إذا لم يكن هناك نوع من الأمل بالوصول إلي حلول مثالية . فالفلسفة التدرجية تبحث دائمًا عن حلول تقريبية قريبة من الوضع الراهن . هذه الحلول ماهي إلا خطوة صغيرة في الاتجاه الصحيح ولاتقترب من أي حل أمثل . ومع ضعف هذا الأسلوب إذا ماقيس من خلال المثالية إلا أنه واقعي في ظل الظروف التخطيطية المعاصرة . وعند قياس التدرجية التخطيطية في مقياس الواقعية العملية فإنه لاشك في أنها تسجل نقطة قوية جداً . فالأهداف التخطيطية المرجوة هي الأهداف التي يُجمع عليها صناع القرار والمخططون والمحللون وليست أهدافًا يصعب الاتفاق عليها كما هي الحال مع التخطيط العقلاني . كما أن البحث عن حلول تقريبية لتخفيف مشكلة حالية أسهل بكثير من البحث عن حلول متكاملة مما يجعل تلك الحلول التقريبية أكثر واقعية وقابلية للتطبيق في الحياة العملية .

وحين يأتي دور الحديث عن التخطيط التفاوضي فهو ذو مثالية متوسطة ، وعملية واقعية ضعيفة جداً . فهو ذو مثالية متوسطة لأنه يدعو إلى نوع من المثاليات التي يصعب قبولها ليس فقط عمليًا بل أيضًا نظريًا (القسم الثالث من المثاليات) فكيف يمكن ترتيب المجتمع إلى وحدات صغيرة قبل الاتفاق على قيم تتم على ضوئها القيادة والإرشاد ، وعلى أي حال هل يمكن الاتفاق على تلك القيم في المقام الأول ؟ وحين نعرض المدخل

التخطيطي التفاوضي على فلسفة العملية الواقعية نجده يكاد يكون من المستحيل تطبيق هذا المدخل في الحياة العملية . فهل يمكن أن يقوم المخطط بالاتصال وجهًا لوجه مع المنتفعين جميعًا ؟وهل سيمكن ترتيب المجتمع إلى وحدات صغيرة وربطها هرميًا بنظام من المجالس لتيسير العملية التخطيطية ؟

وعند النظر إلى التخطيط المناصر في ضوء المعيارين السابقين : المثالية والواقعية العلمية فإنه يسجل موقفًا متوسطًا مع الأولى وضعيفًا مع الثانية . فهو ليس مثاليًا تامًا في تعامله مع جميع فئات المجتمع (مع أنه ينتمي إلى القسم الثاني من المثاليات) ، بل إنه يركز على الفئات المغمورة والضعيفة ويتبنى مواقفها وكأن هذه المواقف هي الأمثل للمجتمع . أما من الناحية العملية فهذا المدخل ضعيف لأنه لم يستطع أن يضع المعايير والتي يتم على ضوئها تعريف الفئات الضعيفة والمغمورة . فهل انخفاض الدخل يكفي كمعيار لتحديد الفئات الضعيفة أم أن الانتماء إلى عرق معين (مثلاً الزنوج في أمريكا) هو المعيار الأفضل ؟

وعندما يأتي دور التخطيط الجذري فإنه يسجل نقطة قوية مع المعيار المثالي ونقطة متوسطة مع معيار العملية الواقعية . فهو مثالي لأنه ينظر إلى المشاكل من جذورها وبالتالي فهو يقترح حلولاً طويلة الأمد وليست حلولاً مؤقتة كما هي الحال مع المداخل التي تتعامل مع أعراض المشاكل العمرانية والتي تكون حلولها دائمًا حلولاً مؤقتة وإن نجحت لفترات زمنية طالت أو قصرت . ويمكن تصنيف التخطيط الجذري على أنه ينتمى إلى القسم الثاني من المثاليات . فالتخطيط الجذري يهدف إلى تحويل المجتمع العمراني إلى مجتمع يكاد يخلو من المشاكل العمرانية عن طريق إستئصال تلك المشاكل من جذورها ، كما أنه يهدف إلى توفير مخططين يمتلكون مهارات عالية لإنجاز الحلول العمرانية . وهذه مثالية مطلوبة ويمكن قبولها نظريًا ولكن قد يصعب تحقيقها . وعند اختبار التخطيط الجذري في ضوء العملية الواقعية نجد أن هناك صعوبات كثيرة تضعف من إمكانية نجاحه عمليًا . فهل يمكن فعلاً توفير مخططين ذوي مهارات عالية لتحقيق فلسفة التخطيط الجذري ؟ وإن وُجد هؤلاء المخططين ذوي المهارات العالية فهل سيكون لديهم الرغبة للعمل في هذا المجال خاصة وأن العمل في القطاعات العامة بصفة عامة

ذو مردود مالي محدود إذا ماقورن بما قد يوفره القطاع الخاص لهؤلاء المحترفين الماهرين ؟

أما فيما يتعلق بالتخطيط الجوهري ، وهو النموذج المقترح في هذه الورقة ، فهو يسجل نقطة قوية سواءً في المنظور المثالي أو المنظور العملي الواقعي . فهو قوي بالمقياس المثالي لأنه يعلن صريحًا بأهمية استخدام المثالية كوسيلة قائدة للعملية التخطيطية . كما أنه ، كالتخطيط الجذري ، يركز على التعامل مع المشاكل العمرانية وحلولها من الجذور ، وهذا من الأوجه المثالية المطلوبة . وهو مثالي أيضًا باهتمامه بالتركيز على الأسلوب اللامركزي سواءً في طريقة الوصول إلى الحل أو تنفيذه . وحين اختباره في منظور العملية الواقعية فهو ، مع إحتمال مجابهته لبعض الرفض بسبب تبنيه لحلول مختلفة تمامًا عن الحلول المعهودة ، سهل التطبيق إذا ما مُهد له بنوع من التثقيف الفكري لتوضيح إمكانياته وعلى الأخص ما يتعلق بالتعامل مع المشاكل من جذورها.

٧- خـــــاتمـــــة

تناولت هذه الورقة الأسس الفلسفية مُحللة مداخله الخمسة المعروفة : التخطيط العقلاني ، التخطيط التدرجي ، التخطيط التفاوضي ، التخطيط المناصر ، والتخطيط الجذري ، موضحةً المآخذ على كل من مدخل ؛ وناقشت فلسفة التخطيط في العالم العربي حيث خَلُصت إلى أنها مستهلمة من الأسلوب العقلاني الموجه بنوع من التخطيط الرد – فعلي . كما أوضحت الورقة أن محاولة استخدام أي من المداخل التخطيطية السابقة كقاعدة للتطوير الحضري في المدن العربية قد لايكون مجديًا مالم تُكيف تلك المداخل لتلائم البيئة العربية . واقترحت الورقة أنموذجًا تخطيطيًا جوهريًا لامركزيًا يمكن الاعتماد عليه كأساس فلسفي لقيادة المنهج التخطيطي العمراني في العالم العربي خاصةً في المدن العربية التي قطعت شوطًا محسوسًا في التطور . واختتمت الورقة بتقويم المداخل الخمسة السابقة والمدخل المقترح (التخطيط الجوهري اللامركزي) في ضوء فلسفتين معروفتين هما الفلسفة المثالية والفلسفة العملية الواقعية . وقد أوضح التقويم أن الأنموذج المقترح يمكن أن يكون الأقرب للمثالية وفي نفس

الوقت عمليًا واقعيًا . أي أنه يستفيد من المثالية في تقديم حلول تقترب من الحل الأمثل ، وفي نفس الوقت قابلة للتطبيق عمليًا مع بعض التمهيدات والتقديمات البسيطة لضمان نجاحه .

المـــراجـــع والتـــذييـــلات

[١] **Hudson, B.,** Comparison of Current Planning Theories: Counterparts and Contradictions, *APA,* **45**(4): (1979).

[٢] **Babbie, E.,** *The Practice of Social Research,* Belmont: Wadsworth Publishing Company (1989).

[٣] **Simon, H.,** *Public Administrations,* New York: Alfred A. Knoff (1950).

[٤] **Faludi, Andreas,** *A Reading in Planning Theory,* Oxford, Pergamon Press (1973).

[٥] **Friedman, John,** *Planning in the Public Domain: From Knowledge to Action,* Princeton, New Jersey: Princeton University Press (1987).

[٦] **Hall, P.,** *Urban and Regional Planning,* London: Routledge (1992).

[٧] المصدر السادس .

[٨] **Bruton, M.,** *The Spirit and Purpose of Planning,* London: Huchison & Co. Ltd. (1974) & (1984).

[٩] **Banfield, E.,** Note on Conceptual Scheme, in: **Meyerson, Martin** and **Banfield, Edward,** *Politics, Planning and the Public Interest,* New York: The Free Press (1955).

[١٠] **Alexander, E.,** *Approaches to Planning: Introducing Current Planning Theories, Concepts and Issues,* New York: Gordon and Breach Publishers (1986).

[١١] المصدر السادس .

[١٢] المصدر السادس .

[١٣] **Lindblom, C.,** The Science of Muddling Through, *Public Administration Review,* **19:** Spring (1959).

[١٤] **Lindblom, C.,** *The Intelligence of Democracy,* New York: The Free Press (1965).

[١٥] المصدر الحادي عشر .

[١٦] المصدر الرابع .

[١٧] المصدر الأول .

[١٨] **Friedman, J.,** *Retracking America: A Theory of Transactive Planning,* New York: Anchor Press (1973).

[١٩] **Davidoff, Paul,** Advocacy and Pluralism in Planning, *JAIP,* **31:** November (1965).

[٢٠] **Kirk, G.,** *Urban Planning in a Capitalist Society,* London, Croom Hill (1980).

[٢١] المصدر السادس عشر .

[٢٢] **Klosterman, R.,** Fact and Value in Planning, *APA,* Spring (1983).

[٢٣] **Goodman, R.,** *After the Planners,* New York: Touchstone Books (1971).

[٢٤] **Grabow, S.** and **Heskin, A.,** Foundations for a Radical Concept of Planning, *JAIP,* **39:** (1973).

[٢٥] **Cloward, Richard, A.** and **Piven, F.F.,** The Acquiescence of Social Work, *Society,* January/February (1977).

[٢٦] المصدر الأول .

[٢٧] المصدر الخامس .

[٢٨] المصدر الأول .

[٢٩] المصدر السادس .

[٣٠] **Klosterman, R.,** Large-Scale Urban Models: Twenty Years Later, *JAPA,* **60**(1): Winter (1994).

[٣١] **Porkin & Strolli,** *Philosophy Made Simple,* New York: M.S. Book Ltd. (1956).

[٣٢] **Sabbour Associates,** *The Planning of Sadat City,* Arab Republic of Egypt: Ministry of Housing and Reconstruction (1977).

[٣٣] **Toulan, N.,** The Evolution of Planning in Saudi Arabia, A paper presented to the *Annual Meeting of the American Planning Association,* New York (1987).

[٣٤] **شكري السنان وآخرون** ، « أثر موقع الإشارات الضوئية المرورية على تصرفات السائقين » ، *الندوة الوطنية لسلامة المرور* ، الرياض ١٥-١٨ شوال ١٤١٤هـ (٢٧-٣٠ مارس ١٩٩٤م) .

[٣٥] **ممدوح لطفي** ، « تأثير بعض تنظيمات وقوانين الإدارة المحلية على حركة المرور » ، *تنظيم النقل والمرور في المدن العربية* ، الجزء الأول ، بور سعيد : المعهد العربي لإنماء المدن ، ١٤١٤هـ .

[٣٦] **Checkoway, B.,** Paul Davidoff and Advocacy Planning in Retrospect, *JAPA* **60**(2): Spring (1994).

[٣٧] المصدر الخامس .

[٣٨] المصدر الأول .

[٣٩] **Hornle, R.,** *Idealism,* London: Hodder & Stough, Ltd. (1924).

[٤٠] **Mulvoney, G.,** *Pragmatism Its Sources and Prospects,* Los Angeles: USC Press (1981).

[٤١] المصدر الأول .

[٤٢] **Caldwell, W.,** *Pragmatism and Idealism,* London: Adam & Charles Black (1913).

[٤٣] المصدر الأول .

Planning in the Arab World in Light of the Western Planning Philosophy

KHALID BIN-SKAIT ALSKAIT
Dept. of Urban Planning, College of Arch. & Planning,
King Saud University, Riyadh, Saudi Arabia

ABSTRACT. Planning in the Arab World lacks a theoretical framework to guide urban development. This research is an attempt to develop a planning model which utilizes Western planning theories, yet respect the general Islamic setting in the Arab World. It examines carefully the major theoretical planning approaches as they were developed in the West, analyzes the general planning paradigm in the Arab World, and proposes a planning model which deals with the future in realistic terms.